بشرى البستاني

قصيدة الجبال

تلوبُ الطيورُ:
الجبالُ، الجبالُ،
الجبالُ تؤرّقني،
وتلفّ بأغصانها جرحَ روحي،
الجبالُ صبايا تجزّ ضفائرها الطائراتُ
فأجمع عنها شظايا القنابلِ،
أمسحُ وجنتها فتسيل الغيومُ على مهلها
فوق شوكِ الصباحْ ..

والجبالُ حيارى،
الجبالُ التي شردتني،
الجبال التي هجرتني،
وأهجرها ..
وأحنُّ إليها،
فتبكي جروحي،
وأنسى الذي كان ما بيننا من ملامْ
والجبالُ تلوبُ:
العراقُ، العراقُ،

العراقُ متاحف نخلٍ،
مرايا، وعاجْ
وأروقةٌ من لجينٍ،
مغارات عطرٍ
وأزمنةٌ، وأكفّ تدقّ رتاج العصورِ
فتنهضُ إنساً وجانْ ..
وتعدو الفيالقُ ،
تعدو البيارقُ،
تعدو الخيولْ ..

والعراقُ الجراحُ
العراقُ الأمانُ،
العراق الأماني
العراقُ حديقةُ روحي،
تضمّ إليها غيوماً وأزمنةً،
وجداولَ شهدٍ تشقّ أكفّ الترابْ،
والعراقُ عباءةُ أمي،
وثوبُ العذارى اللواتي يمتن على السفحِ
من ظمأٍ واغترابْ ..

يا قمر الجبال
عرّج على السفوحْ
فوجهك الأبهى
يطلعُ في الجروحْ
يا قمر المنفى
عرّج على الحقولْ
فوجهك الأبهى
يولدُ في البذور ..!

فيا شجراً لا يهادن،
يا شجراً يستفزّ الرياحَ،
لماذا فتحت النوافذ والشمسُ
داكنةٌ
والعيون قميئةْ؟
لماذا توضّأت بالدمِ،
بالأمنياتِ،
ودهرك أعجزُ من باقلٍ،
والعدوّ يهددُ صبيانه

والرياح تسيرُ بما يشتهي القتله؟

أنت علّمتني أن أموت كما ينبغي

وألبّي الحياة إذا انبلجت قنبلهْ ..

فلماذا ذهبت وخلّيتني،

ولماذا عبرتَ إلى ضفّةٍ أنا أجهلها؟

في الطريق إلى مكّةٍ عيّرتني القوافلُ

أنْ سأموتُ بلا كفنٍ أو سدور

وفي المغرب العَربيِّ وجدتُ ثيابي معلّقةً

فوق صاريةٍ،

وثيابي على حبلِ الشيخ في الشامِ،

منشورةٌ فوق جبلٍ يخطّ حدودَ

هويّةِ أهليَ

بين البنفسج والنار،

بين المدى والقتيلْ

هناك وجدتك تبتاع خبزاً لورد العراقِ،

وتنحتُ صخراً لأحلامه ...

نسيَ النيلُ ما كانَ،

آفةُ هذا الزمانِ التذكُّرُ،

آفتهُ الموتُ فوقَ حجارة أمسٍ تلبّدَ،

تلك الجبالُ، الجبالُ،

الجبالُ طيورٌ تكابدْ

مناف، حصونٌ، حقولٌ من الزعترِ المرِّ،

نعناعها كرمُ الأرضِ، شحتُها

قمرُ الأرض، لوعتها

والجبال الجحيمُ،

الجبال النعيمُ،

الجبالُ سياطٌ تغالبْ

تهادنني،

لا أُهادنْ

والجبالُ المناراتُ،

خضراءُ، حمراءُ، سود

والجبالُ القبابُ،

الوعولُ، المرايا

مراكبُ تسرحُ في الغيمِ،

تبحثُ عن لوعةٍ ولظىً يسعانِ

هواها ..

تؤرجحني،

أتهاوى إلى القاعِ،

أصعدُ عبر الجذوعِ،

أرى ذمماً تُشترى،

وشعوباً تباعُ،

وأُبصرُ تاريخ حبيٍّ على السنديانِ،

ممالكَ أهلي وتيجانهم،

ونضارَ خطاهم وأزمانهم،

فتلوبُ الكهوفُ،

وتشعلُ أنياب فيلٍ تمرّدَ

أبرهةٌ لا ينامُ يفتش عن باب مكةَ بين

السفوحْ ..

والجبالُ ملاعبُ أهلي،

أحسُّ دبيبَ سواهم على قمةٍ هي وردة

روحي،

على ربوةٍ هي جرحُ الحروف التي طهّرتني،

على نبعِ ماءْ ..

تغوصُ حمامةُ قلبي بأغواره فأفوحُ شذىً،

أتأرجحُ ما بين ليلٍ وفجر

وعطرٍ ووجدٍ

وما بين نارٍ ونارْ ..

وفي لحظة الشوق، ما بين شِعْبين،

في شجرِ الجوزِ،

في جذعِ لوزٍ يخبئُ تاريخ آشور،

في جنبات الصنوبرِ،

أو عنفوانِ الشقائق،

يلتاعُ جلجامشُ

السرُّ يفقأ عين الخطيئةِ،

تحتدمُ الأرضُ في قاعِ وادي العقيقِ،

الحداةُ، الحداةُ

الحداةُ يصيحون بالمجرمين الذين

يجزّون شعرَ الغزالِ،

الغزالُ مسجّىً على قاعِ رملِ الخليجِ

الخليجُ يلوجُ على عفنٍ،

والخليجُ يَموجْ

بالسمك المنخورِ والعلوجْ

– يا قمر البستانْ

عرّج على الشرفةْ

فوجهك الفتّانْ

يموتُ في البذرهْ
يا قمر الجبالْ
عرّج على السفوحْ
فوجهك الفتّانْ
يولدُ في الجروحْ
* * *
وشريفهم في الليلِ يضربُ كفّه!
ماذا سنفعلُ دونما تترٍ،
همو وعدوا سيأتون العشيّة
والعلقميّ إذا تأخّرَ،
من سنعطيه مفاتيحَ القضيّة؟.
يختصّ تاريخ الرماحِ على ظهور علوجهم،
ترنّحُ أحذية البرابرة، التتار،
على سفوح جباههم
يا ويل ماضيهم من الآتي،
وآتيهم من الأصنام والأزلامِ
والزمنِ المضرّج بالأسى ومجازرِ التفاحِ
هذا البحرُ غربانٌ،
وأوحالٌ،
ودمْ ..
ومراكبٌ تهوي،
وأخرى تحتدمْ
والبحر أهدى الفجر قبعةً وراحْ ..
ولم يستبحْ ورد الطفولةِ،
بانبلاج الأفق كان البحرُ يؤمنُ،
بالخطيئةِ، بالرياح ..
باللعنةِ الكبرى، وبالوطن المباحْ
أبوابُ حيفا مُذْ خرجنا
ظلّت مفتحةً لأسرابِ النميمه
سفرُ الجريمةِ أينعت أغصانه
وعناكبُ الديجور تحجبُ في الربى
ورد الصباحْ
ماذا ستعطيك الحياهْ ..؟
النار أشعلت السنابل في الحقولِ،
ونارهم غرّاءُ لا تؤذي القتيلَ،
حضارةٌ زهراءُ، من دمنا أكفُّهمو تسيلُ،
فلا تمت من القيظِ،
لا ماءٌ، ولا خبزٌ،
ولا قمرٌ ظليلْ
أعطتك هذي السنديانةُ ذاتها
وهبتك عرشاً يستريحُ،
ولا يريحُ،
فلا تَبعْ تاج الطفولةِ،
فالجبالُ هيَ الجبالُ، هي الجبالْ
وشجيرةُ الرّمان ألقت زهرها فوق الرمالْ
ماءٌ يَسيلُ من الغصون الى حمام الروحِ،
أجنحةٌ تحطّ على ذرى القلبِ،
الجبالُ منافذٌ للبحر،
ذاكَ البحر كان أذايَ،
كان مظلةً سوداءَ،
كان البحرُ مرسالي الى قيظِ الجزيره!
– يا قمرَ المنفى
عرّج على البيوتْ
فوجهك الأبهى،
ياقوتةٌ تموت
يا قمر الصحراءْ
عرّج على الواحاتْ
فوجهك الوضّاءْ
يذبلُ في الفلاة
أهذا زمان الرجوعِ؟
اذن انت تكتبه
وتهادن سراً يمزّقنا،
لا نبوح به،
نكتوي،
لا نبوح بهِ
ونسير الى حيث تهوى المسيرْ
الى حيث ريحُ الصبا غضّةٌ،
والمناديل آمنةٌ،
والمنايا نذور .

الموصل (العراق)